(المحاضرة الرابعة)

• ظهور محمد علي وتأسيس الدولة المصرية الحديثة:

بعد ان انسحب الفرنسيون من مصر عاد العثمانيون يمارسون سلطتهم هناك عن طريق واليهم خورشيد باشا ولكن الشعب المصري اخذ يلتف حول السيد عمر مكرم ابرز زعيم قاد حركة مقاومة الفرنسيين وعندما حاول خورشيد باشا فرض ضريبة جديدة نشبت ثورة عارمة في مصر لغرضين رئيسيين.

أولهما: التخلص من الحكم العثماني لنضج الوعي القومي بسبب الصراع الدامي الذي خاضه الشعب المصري مع الفرنسيين لأكثر من ثلاث سنوات

ثانيهما: التخلص من الضرائب الباهظة التي فرضها الالي العثماني على التجار وأصحاب الحرف فأثقلت كواهلهم فضلا عن الاستغلال البشع الذي واجهه الفلاحون وهم السواد الأعظم من أبناء الشعب.

رفض الشعب دفع الضرائب الجديدة وأقفلت المحلات ولجا الناس الى الجامع الازهر وفشلت كل محاولات خورشيد باشا في التفاهم مع المشايخ وان لا بد له من التراجع امام الاجماع الشعبي فقرر اعفاء الفقراء من الضريبة زلكن عمر مكرم قال له ان ارباب الحرف والصناعات اصبحوا فقراء كذلك دعا عمر مكرم يوم ١٢ أيار سنة ١٨٠٥ الى عقد مجلس يحضره القاضي وقادة المقاومة للبحث في الأوضاع الجديدة وقد بعث الوالي من جانبه بمندوبين خمسة لحضور الاجتماع وانعقد المجلس في وضع كانت الجماهير فيه تطوف الشوارع والازقة معلنة معاداتها للعثمانيين واسفر الاجتماع عن التوقيع على وثيقة تضمنت مطالب الشعب بعثوا بها الى الوالي ومما جاء فيها:

١- **عدم السماح للجنود بدخول مدينة القاهرة بسلاحهم**

٢- **عدم فرض اية ضريبة ما لم تنل موافقة قادة المقاومة**

رفض الوالي هذه المطالب ولكن الشعب قرر عزله فعقد زعماء المقاومة اجتماعا في دار ضابط عثماني من أصل الباني جاء الى مصر مع القوات التي أرسلها السلطان لإخراج الفرنسيين منها عام ١٨٠١ اسمه محمد علي وكانت له علاقات طيبة بقادة الشعب من المشايخ والتجار. وقد تحدث في الاجتماع عمر مكرم ودعا الى تعيين وال جديد ووقع الاختيار على محمد علي وكتبوا وثيقة بتاريخ ١٣ أيار ١٨٩٥ جاء فيها: "**تم الامر بعد المعاهدة والمعاقدة على سيرة بالعدل وإقامة الاحكام والشرائع وانه متى خالف الشروط عزلوه واخرجوهم وهم قادرون على ذلك كما يفعلون الان**" وبعد ان لاحظ السلطان العثماني نمو دور الشعب وقوته التي أوصلت محمد علي الى مركز الولاية اضطر الى المصادقة على هذا التعيين في تموز سنة ١٨٩٥.

اعتمد محمد علي في البداية على زعماء الشعب وكان عليه ان يواجه فلول الغزو البريطاني للشواطئ المصرية سنة ١٨٠٧ بقيادة الجنرال فريزر وكان فريزر على اتفاق مسبق مع قسم من قادة المماليك المناوئين لمحمد علي وتقدمت القوات البريطاني الى القاهرة فاصطدمت بالقوات المصرية التي تحركت لمواجهتها فهزمت في المعركة واضطرت الى الانسحاب وعقد الصلح مع محمد علي.

- **اعمال محمد علي في مصر ونتائجها**

لاحظ محمد علي نزوع اتجاهات الوعي الوطني الى الاستقلال فلم ير بداً من السير في هذا الاتجاه سيرا واعيا مسلما بتفاصيلها مدركا ابسط وادق حقائقها وإذ كان لا بد من الاستقلال فلا بد من بناء الدولة القادرة على حماية الاستقلال ومن هنا بدأت جهوده لجعل مصر دولة حديثة واهم ركيزة اعتمد عليها الجيش لكونه الدعامة الأولى للدولة فهيا كل دوائره واجهزته لتقوية الجيش والاسطول وادخل الأسلحة الحديثة وامر بتطبيق نظم التدريب العصرية واستعان بضابط فرنسي اسمه **(سيف)** عُرف بعد ذلك **(بسليمان باشا الفرنساوي)** لتنظيم جيشه على غرار الجيش الفرنسي كما أسس عدد من مصانع المدافع والبنادق واشترى عددا من السفن من الدول الاوربية فأنشأ ترسانة كبرى في الإسكندرية وارسل عدد من الشبان لدراسة فن بناء السفن في أوربا .

بعدها اهتم بالدعامة الثانية للدولة وهو التعليم بالتوسيع والتنويع فأنشأ التعليم على شكل هرمي فبدا بالتعليم العالي لحاجته المباشرة اليه في بناء جيشه وحكومته وقد امده الازهر بعدد كبير من الشبان المتعلمين تعليما دينيا تقليديا ممن كان عندهم استيعاب ما يلقى عليهم من الدروس في مواضيع جديدة وكانت اهم مشكلة في التعليم هو لغة التدريس لان اكثر المدرسين كانوا من الأجانب الذين لا يعرفون اللغة العربية وكانت الدولة تدفع للتلاميذ مرتبات شهرية تشجيعا لهم على المواظبة والاستمرار وكان التعليم في عهد محمد علي مجانيا وأول مدرسة انشات هي مدرسة الهندسة تلتها الطب ومدارس أخرى للصيدلة واللغات والصنائع والزراعة وبرز دور المعلم في نشر الوعي والثقافة وانشا إدارة خاصة للمدارس سميت بـ **(ديوان المدارس)** تشرف على التعليم في البلاد.

وقد ضمت البعثة الأولى التي أرسلها محمد علي سنة ١٨١٣ الى الدول الاوربية والى فرنسا خاصة عددا من الطلاب الازهريين كان بينهم العالم المصري الكبير **(رفاعة رافع الطهطاوي)** الذي أدى دورا كبيرا في نهضة مصر الحديثة فقد جمع بين الثقافتين العربية والاوربية ونشر عددا من الكتب التي سجل فيها انطباعاته من الحضارة الاوربية وقد شجع عددا من طلبته في مدرسة اللغات على ترجمة كثير من الكتب من الفرنسية الى العربية.

لقد كان لنظام التعليم الذي انشاه محمد علي أثر كبير بظهور طبقة المثقفين التي ساهمت في يقظة مصر والوطن العربي وبلغ عدد الطلاب المرسلين الى اوربا **(٣١٩)** طالبا وهو عدد كبير لم تفكر فيه اية دولة شرقية بإرسال طلابها الى اوربا.

كما انشا محمد علي **(مطبعة بولاق)** وهي من اقدم المطابع في الوطن العربي وقد قدمت هذه المطبعة الكثير من الكتب المختلفة باللغة العربية وكانت الحكومة تبيعها بأثمان زهيدة حتى تؤمّن لها الانتشار بين القراء في مصر وسائر البلدان العربية وتولت طبع جريدة الحكومة الرسمية **(الوقائع المصرية)** وهي اول جريدة تصدر في مصر باللغة العربية ولقد ساهمت مطبعة بولاق في دفع حركة التأليف والنشر ليس في مصر وحدها بل في الوطن العربي كله.

شجع محمد على **الزراعة** ووسع نظام الري وادخل محصولات جديدة وسعى في زيادة أخرى كالقطن والنيلة والتوت وقصب السكر.

صيرّ محمد علي الدولة. المالك الوحيد لجميع أراضي البلاد فاخذ أراضي المماليك واستولى على أراضي الأوقاف وألغى نظام التزام الأرض الذي كان سائدا قبله ووزع الأرض على الفلاحين فأعطى كلا منهم خمسة افدنة لاستثمارها بحسب توجيهات الحكومة ودفع الضرائب المفروضة عليها وتؤخذ منه اذا عجز الفلاح عن استغلالها او عجز عن دفع ضرائبها وقد حددت الحكومة لكل منطقة من الأرض أنواعا معينة من المحاصيل الزراعية

وتعهدت الحكومة بتسليم هذه المحاصيل بأسعار معينة ثم تتولى هي بيعها للتجار الأجانب وغيرهم.

اما **الصناعة** فقد اقام محمد علي على بعض الصناعات الضرورية في مصر محاولا تقليل الاعتماد على الدول الاوربية في شراء السلع المصنوعة فأنشأ مصانع للغزل والنسيج والسكر وسبك الحديد وغير ذلك وقد حققت صناعة الانسجة المصرية نجاحا كبيرا ليس في مصر وحسب بل وفي كثير من البلدان العربية كما اشتهرت الغزول المصرية في اوربا.

كما اتسعت **تجارة** مصر في عهد محمد علي لأنشائه اسطولا مصريا وتوسيعه ميناء الإسكندرية فأصبحت السفن المصرية تمخر عباب البحر الأحمر ومياه شرق البحر المتوسط كما اعيد فتح الطريق البري بين القاهرة والسويس وانشات المحطات التجارية على الطريق وقد احتكرت الحكومة تجارة كثير من السلع ولعل القطن والبن والنيلة في مقدمتها.

ان سياسة محمد علي في مصر اثارت مخاوف السلطان العثماني وسخطه لأنها كانت محفزة لسكان ولايات الدولة العثمانية على الاخذ بوسائل التقدم ومشجعة على الاستقلال بولاياتهم ولهذا ظهر السلطان عدم رضاه من سياسة محمد علي غير ان محمد علي استمر بسياسته التي املتها عليه ظروف مصر وتطلعاته الشخصية.

ان تفكير محمد علي ببناء دولة مصرية حديثة قاده بالضرورة الى تتبع الارتباطات الاستراتيجية **(السوقية)** لمصر بالأطراف المحيطة بها وهب بمجملها عربية وابرزها:

١. ارتباط مركز مصر السوقي (الاستراتيجي) بالسودان وبنهر النيل واحتمال تهديد هذا المركز في حالة سيطرة دولة أخرى على السودان وتحكمها في نهر النيل.
٢. وقوع مصر على البحر الأحمر والخوف من امتداد النفوذ البريطاني اليه.
٣. أهمية الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط (بلاد الشام) لكونه جبهة مصر الشمالية ومحور الخطر العثماني الى مصر.

كان محمد علي يرى في بريطانيا الخطر الذي يهدده من جهتي السودان والبحر الأحمر وشبه الجزيرة العربية كما ان بريطانيا بقت تتحين الفرص لاحتلال مصر واستعمارها وبعد ان اخافها نشاط محمد علي في نقل مظاهر التطور الحضاري الأوربي الى مصر، وتفكيره في تحويل الوكن العربي الى مركز قوة لما يتمتع به من مزايا استراتيجية **(سوقية)**.

- **حروب محمد علي واتساع رقعة دولته:**

أرسل محمد علي استجابة لطلب السلطان محمود الثاني قواته بقيادة ابنه إبراهيم الى شبه جزيرة العرب لمقاتلة الحكام الوهابيين واحتلال عاصمتهم الدرعية وذلك في سنة ١٨١٨ واضعاف نفوذهم. والحركة الوهابية حركة سياسية ذات طابع ديني، مؤسس مذهبهم محمد عبد الوهاب وقد حدثت مأساة كبرى على ايدي الوهابيين فقد اعتقد هؤلاء بان زيارة الاضرحة وتقديسها لا تتفق مع مذهبهم وافكارهم فاضمروا العداء لكل من مذهب يقدس مراقد الائمة والصالحين وقد حدثت عام ١٨٠١ ان اقتربوا من كربلاء واغتنوا فرصة ذهاب معظم سكانها للزيارة الى النجف فهاجموا المدينة بغته وقتلوا ما لا يقل عن ألف من سكانها وجردوا ضريح الامام الحسين **(ع)** من التحف التي لا تثمن ثم قفلوا راجعين.

ولما تمت السيطرة لمحمد علي على اغلب المناطق في شبه الجزيرة العربية اخذ يوسع نفوذه باتجاه السودان فأرسل ١٨٢٠ قواته بقيادة ابنه إسماعيل فأسس المصريون مدينة الخرطوم لتكون عاصمة للسودان كما ادخلوا كثيرا من مظاهر الحياة الحديثة الى السودان.

اتجهت القوات المصرية بقيادة إبراهيم باشا الى بلاد الشام فسيطرت عليها سنة ١٨٣١ ونظم إبراهيم باشا الأوضاع العامة هناك فنجح بتوطيد الامن واسس المدارس وكان

أثر المعلم واضحا في اعداد أجيال وتربيتها وتهيئتها لمواجهة المخاطر التي تهدد كيان الامة وموروثها الحضاري كما اهتم بالمستشفيات وساعد على تنشيط حركة التجارة واستمرت سيطرته حوالي عشر سنوات وبدا محمد علي يفكر بالتوجه نحو العراق وقد اتخذ ها التوجه الاشكال التالية:

١. تشجيع النزعات الاستقلالية عن الدولة العثمانية في العراق وتقديم المساعدات والدعم لها وربطها بالسياسية المصرية.
٢. كان لإبراهيم باشا مراسلات مع جهات رافضة للسيطرة العثمانية في العراق وهم المماليك الذين يحكمون العراق آنذاك.
٣. توثيق العلاقة مع القبائل الساكنة حول بغداد وقبائل المنتفق ومع ان طموح محمد علي لم يتعد حدود التهديد للسلطان العثماني او بريطانيا إزاء العراق الا ان ذلك يتصل بطبيعة حركة محمد علي فيما يتعلق بالخطط الاستراتيجية **(السوقية)** المستقبلية.

لقد ادركت بريطانيا خاصة والدول الاستعمارية عامة خطورة هذا التحرك فبريطانيا كانت ترى في مصر الممر الى الهند وقد تعززت قناعتها هذه منذ احتلال فرنسا لمصر وروسيا تريد منع المصريين بالتقدم شرقا لان هذا التقدم يفوت عليها مصالحها في الوصول الى المياه الدافئة ويهدد استقرارها السياسي ونشطت بريطانيا في تنشيط مخاوف بلاد فارس من نجاح محمد علي في إقامة دولة كبيرة لما له تأثير على مطامعها التوسعية في الخليج العربي ولذلك اتفقت مصالح هذه الدول على إيقاف نشاط محمد علي حتى فرنسا التي رات في محمد علي فرصة جديدة للمجابهة مع بريطانيا وجهزنه بالخبراء والضباط وشتى المساعدات الا انها وقفت في وجهه في النهاية لأنها خشيت على مصالحها من قيام دولة قوية متطورة.

اخذت بريطانيا تحاصر حكم محمد علي فحرضت المشايخ في الخليج العربي عليه وحاولت منع أي اتصال بين مصر والعراق واحتلت عدن وعادت الحرب بين القوات

المصرية والقوات العثمانية وحدثت **(معركة نصيبين)** التي انتصرت فيها القوات المصرية وعقب هذه الانتصارات قررت بريطانيا ان تقف بشدة بوجه محمد علي وفي سنة ١٨٤٠ وقعت بريطانيا وروسيا وبروسيا والنمسا والدولة العثمانية على **(معاهدة لندن)** التي تقرر فيها مصير محمد علي فنزلت قوة عثمانية بريطانية في ساحل شمالي بيروت مما اضطر الجيش المصري للجلاء عن سوريا ووقع محمد علي على معاهدة ١٨٤٠ التي فرضتها عليه الدول الاوربية واجبرته بها على الانكفاء داخل حدود مصر ويكون الحكم وراثيا في اسرته ولتحقيق هذا الغرض الاستعماري سبق ان اقترحت بريطانيا إقامة كيان صهيوني في فلسطين ليكون حدا فاصلا بين سوريا ومصر يفسد احباط أي محاولة وحدوية في المستقبل

وكانت السياسة الاستعمارية ترمي الى تحقيق غرضين رئيسيين

أولهما: ضرب الاستقلال الوطني لمصر والبدء بعملية احتواء اقتصادي وذلك عن طريق ربط الاقتصاد المصري بالاقتصاد الاستعماري وضرب إصلاحات محمد علي الاقتصادية.

ثانيهما: محاولة انهاء دورها بأبعادها عن البلدان العربية الشقيقة وتشجيع النزعات الإقليمية.